تَقْـدِيم

هذا كتاب «أمثالِ المتَنَبِّي» الذى جمعه الوزير إسماعيل بن عبّاد - المشهور بالصاحب - لسلطانه فخر الدولة بن بُوَيْه فى القرن الرابع الهجري.

وكم تمنَّيْتُ أن أُعيدَ ترتيبَ هذه الأمثال التى بلغت مائتين واثنين وخمسين مثلًا حسب القوافي التى تنتمي إليها وعددها أربع عشرة قافية، وأن أسلط الضوء على المناسبة التى قيل فيها كل مثل، وأذكر موقعه من قصيدته.

كما تمنيت أن أضع بين يدي القارئ الفكرة التى يدور حولها المثل ليتسنى للأدباء ورواد الحكمة - شِيبًا وشُبانًا - الاستشهاد بما يناسب المقام من تلك الأمثال.

وقد هيأ الله لي أن أقوم بهذا الدَوْر مع العناية باللغة ومعاني المفردات، إلى جانب شرح كامل لكل مثل على ضوء ما جاء فى شروح الديوان المتعددة.

ولم أتوقف عند هذا الحد بل حَرَصْتُ على أن أجمع لرواد الأدب، وطُلاّب الحِكمة ما ذكره الثعالبي في «يتيمة الدهر» عن محاسن أبي الطيب فى حِكَمِه وأمثاله، وهو الذى ملأ الدنيا وشغل الناس! ولم يفتني أن أضيف إلى هذا ما ذكره العُكبَري فى شرحه لديوان أبي الطيب من الأمثال التى أتت أعجازًا فى أبيات المتنبي!، فضم الكتابَ كل هذه الدر الغالية، إلى جانب ما جمعه الصاحب ابن عباد، حتَّى صَحّ فيه المثل القائل: «كُلُّ الصيدِ فى جَوْفِ الفَرَا»!!

ولا يخفى أن للمتنبي من الحكم والأمثال ما يربو على كل شاعر تقدَمه وهو الذى عايش النصف الأول من القرن الرابع الهجري.

وقد أصبح للغة العربية وآدابها من كلامه ثروة لم تكن لَوْلاَه؛ فما من كاتب، أو خطيب، أو متكلم، أو مُناظِر، أو مدرس إلا وله من حكم المتنبى وأمثاله مَدَدٌ أي مَدَدًا!

ولهذا اشتهر المتنبي بين الجميع بالحكمة يرسلها فتستقر فى النفوس مرتاحة إليها، حريصة عليها.

ولقد اشتهر العرب - من قديم الزمان - بالأمثال والحكم - يضمنونها تجاربهم، وخبراتهم، ويسوقونَها فى أحاديثهم، ويقتبسون منها فى كتاباتهم.

ولا عجب! فَبَدْرَرها يتحلى جِيدُ الكلام، وبفوائدها يتجلّى الالتباس والإبهام حتى قال بعضهم:

إن الأمثال هي حُلِيَ المعنى التى تخيرتها الحكماء، ودارت على كل لسان فى كل زمان.

ويقول ابن المقفع: إذا جُعِلَ الكلاُم مثلًا كان أوضح للمنطق، وآنقَ للسمع.

وقال إبراهيم النظّام: يجتمع فى المثل أربع لا تجتمع فى غيره من الكلام:

١- إيجاز اللفظ. ٢- وإصابة المعنى.

٣- وحين التشبيه. ٤- وجودة الكناية.

فهو نهاية البلاغة!

ولقد كان أبو الطيب مضرب المثل فى أمثاله وحكمه التى أصبحت أمثلةً تُحتَذَى، ونماذجَ بها يُقتَدى! حتى وصفه القدماء بالحكيم!

والحق أن المتنبي فى مقدمة شعراء الحكمة إذ هى أوفر عددًا فى القصيدة الواحدة، وفى القصائد، وأقوى صياغة، وأقرب فى دلالتها إلى قلوب الأمة العربية وهواها. وبهذه المزايا الثلاث: الكثرة، وقوة الصياغة، وقربها من النفوس تفوَّق المتنبي على غيره من الشعراء في هذا المجال.

ولقد أقبل العرب على حكمته؛ لأنها توافق مشاعرهم، إذ هي توحي بالقوة، بل تطالب بها وبالشدة فى إدراك الغايات، واسترجاع الحقوق، ودفع المظالم، ولا ترى فى هذا السبيل ملاينة، ولا مسالمة، ولا تجنح إلى مهادنة مع العدو الباغي.

وإنه ليُرسِلُ حكمته ملونةً بلون غريزته وطبعه، فنراه يدعو إلى محاربة الطغاة، والفتك بالأعداء، وطلب الحق بالقَنا والأعوان، وإيثار العز فى الجحيم على الذُل، وتوسيد الأمور لأهلها، وانتزاعها من غيرهم قسرًا، ومحاربة الدخلاء، ووقف الأجانب عند حدهم، وإنزال الناس منازلهم، ولم اقتضى الأمر ركوبَ الأسِنّة، وإراقة الدماء.

ثم هو يعيب الزمان الذى يرفع الجهلة والأوغاد، ويحط العقلاء والأبطال.

لقد كانت الأمة فى عصره منكوبة بالضعف والتفكك، والانقسام يتملكها الأجانب، ويتحكم فى أمرها العبيد والجنود المرتزقة، ويحطم كيانها الخلاف السياسي، والنزاع المذهبي حتى هوت إلى درجة لم تشهدها من قبل!

ولم يكن هناك إلا «ولاية حلب» تلك التى كان يحكمها أمير عربي هو سيف الدولة الحمداني الذى كان المتنبي شاعره.

فى هذا الجو عاش المتنبي، فجاءت أمثاله وحِكَمُهُ نبراسًا للأمة وقائدًا لها على الطريق.

ولقد مضى أحَدَ عَشَر قرنا وأكثر ومازالت أمثال المتنبي نورًا لنا على الطريق.. فيا ربَ نورًا.. ويارب مزيدًا من النور،

محمد إبراهيم سليم